الفصل العشرون

ترميم حياتي

بعد أن سُرّحت من الجيش وجدت (كريستي)، صديقة (روماندا)، غرفة لي في الكنسية، حيث تعمل، وأخبرتني بأن بإمكاني البقاء هناك بضعة أيام، على الأقل سيتيح ذلك لي بعض الوقت لأعد خطة ما، جلست بائسة في المطار بعد أن غادر مرسيس أنتظر مجيء كريستي.

فإذا بصوت يأتي من داخل المطار:

«هل أنت السيدة حمدان، المرأة التي ظهرت قصتها في صحيفة النيويورك تايمز هذا الصباح؟».

لم ألاحظ هذا الشاب يتجه نحوي، كان يضع صحيفة النيويورك تايمز تحت ذراعه، وينظر إلى نسخة كتاب «من العمل العسكري إلى العمل المدني» التي معي، ثم هزّ رأسه قائلًا:

«إنه لشرف لي أن ألتقيك! أنا فعلًا آسف لما حدث معك ومع أطفالك؛ ولأنك سُرّحت من الجيش هل يمكنني فعل شيء لمساعدتك؟».

«شكرًا لك على عرضك، لكني لا أحتاج إلى شيء».

وبعد أن غادر اتصلت بي أندريا، فأخبرتها عن هذا اللقاء الغريب.

«أنت الآن مشهورة يا فدوى! لذلك احذري من أن تعطي رقم هاتفك أو تخبري أي أحد إلى أين أنت ذاهبة».

أخفيت كتابي، وتجنبت النظر إلى غرباء فضوليين حتى وصلت كريستي. كانت الكنيسة تقع في منطقة معزولة، وذلك زاد من يأسي، فأنا لا أريد أن أكون وحيدة مع أفكاري، فأفكاري غامرة وسوداوية، وكان عليّ أن أجد عملًا ومنزلًا، وأجد طريقة لأملأ وقتي حتى لا أفقد عقلي.

أمضيت النهار أبحث كالمجنونة عن عمل أجني منه مالًا كافيًا لأعول نفسي. وفي الليل، عندما لم يكن هناك شيء أفعله إلا الجلوس أتألم في العتمة، فكرت في اختبار اللغة الإنجليزية وآمالي الضائعة في الجيش، وفي المال الذي لا أدخره من أجل رؤية أطفالي مرة أخرى، لم

أستطع أن أزيل تلك الأفكار من ذهني، ثم خطر ببالي أن أكتب رسالة خاصة للرئيس الأمريكي في البيت الأبيض، وربما إذا ذهبت مباشرة للأعلى يمكن أن يدرك أحدهم ما حدث لي، ويفعل شيئًا لمساعدتي، كنت أعرف أن فرصتي ضئيلة بأن يرى شخص ذو نفوذ رسالتي، لكن مجرد كتابتها أشعرني بأنني أنجز شيئًا، فطلبت من كريستي أن أستخدم حاسوبها، وقدمت لها أعذارًا مبهمة؛ حتى لا تطرح عليّ أسئلة كثيرة. فقد أردت أن أجد العنوان على الإنترنت، ولم أرد أن يُثنيني أحد عن خطتي، ثم سألت كريستي إن كان بإمكانها أن تأخذني إلى مكتب البريد لأشتري مغلفًا وطوابع بريدية.

كرستي: «لدي بعضها هنا في مكتبي، وإذا أردت أن ترسلي رسالة لأحدهم فلدينا صندوق بريد في الكنيسة، والبريد يُؤخذ كل يوم».

شكرتها، ورجعت إلى غرفة الضيوف، حيث أقيم لأكتب رسالتي، لم أكن أمتلك حاسوبًا، لذلك كتبتها بيدي، ثم وجهت رسالتي إلى الرئيس (بوش)، وقدمت فيها نفسي، وأخبرته بأنني إذا عدت لوطني فسوف يلاحظ موظفو الجمارك هناك أن رقم ضماني الاجتماعي موسوم بعلامة تدل على انضمامي للجيش الأمريكي، وشرحت في الرسالة بأنه ليس لدي وظيفة ولا مكان أعيش فيه، وسألت عن نوع الحماية التي يمكن للولايات المتحدة أن تمنحها لي إذا قررت أن أعود للوطن في زيارة، ثم وضعت الرسالة في المغلف، ووضعت عليها الطابع البريدي، وأرسلتها إلى واشنطن العاصمة، فشعرت ببعض الأمل بأن ينتج شيء عن رسالتي، انتظرت ثم انتظرت، لكني لم أتسلّم أي ردّ.

وفي عطلة نهاية الأسبوع قررت أن أعود إلى القاعدة، فلا يمكنهم أن يسرحوني من الجيش بهذه البساطة دون أن يشرحوا لي لماذا لم أكن جيدة كفاية! ولا يمكنني السماح لهم بالاستمرار في حياتهم، بينما أعاني أنا كثيرًا ولا مكان لي أذهب إليه، وفي طريقي إلى الثكنات التقيت المدرب ميندوزا، فقال لي:

«ماذا تفعلين هنا يا حمدان؟».

كنت قد غبت ثلاثة أيام فقط.

«جئت لأسلم على الجميع فحسب».

ميندوزا: «على فكرة، قرأ جميع المدربين العسكريين قصتك على الإنترنت!».

«حقًّا؟».

تحدثت معه بضع دقائق، ثم ذهبت لأكمل مهمتي، فقد أردت أن أتحدث مع أساتذتي في معهد اللغات، لكن لن يكون أحد هناك؛ لأنه يوم عطلة، فذهبت إلى المتجر العسكري، ووجدت دايفس هناك يتبضع بملابسه المدنية.

«حمدان؟».

«أيها الرقيب! هذه أول مرة أراك في ثياب مدنية».

«وأنت أيضًا! إذن اشتقت إلى القاعدة، أليس كذلك؟ أنت مشهورة في الجيش الآن، وجميع كبار المسؤولين يعرفونك الآن، ثم أكمل قائلًا: فأنا عملت هنا سنوات عدة، ولا يعرفني أحد على الرغم من رتبتي العالية، أما أنت فعملتِ مدة قليلة، والكل يعرف من هي فدوى حمدان!».

ابتسمت له، لكني لم أذهب إلى هناك لأمزح مع الآخرين، لكني لم أحرز أي تقدم، ثم اتصلت أندريا لاحقًا لتطمئن على أحوالي، ففي اليوم الذي نشر فيه مقالي تسلّمت نحو مئة بريد إلكتروني، كثير منها تعرض مساعدتي، كانت إحدى هذه الرسائل من امرأة تدعى (إيريكا) تعيش في سان أنطونيو ولديها غرفة إضافية يمكنني أن أمكث فيها بعض الوقت إن أردت، فقررت أن أتصل بإيريكا، وأتحرى الأمر.

أقلتني إيريكا بسيارتها في وقت الغداء في اليوم المقبل، وكانت معها ابنتها الصغيرة (آشلي) ذات الخمس سنوات تحدثنا بحرية، ولم أشعر أبدًا بأنها تكنّ أي نية سيئة، وعرضت علي أن تساعدني في نقل أغراضي، فشكرتها، وأخبرتها بأنني سأعلمها بذلك.

ولاحقًا اتصلت بأندريا؛ لأسألها عن رأيها، فقالت لي:

«هذا يعود لك. إن شعرت بالراحة تجاهها، فلِمَ لا؟».

جلست على سريري، وبكيت، فقد شعرت بالوحدة الشديدة، ولم أتخيل أنني سأعيش بهذه الطريقة، وأنا في هذا العمر، أنتقل من بيت مؤقت إلى آخر.

وفي اليوم المقبل اتصلت بي أندريا مجددًا، فقد تسلّمت بريدًا إلكترونيًّا من القاضي (ترافيس فيكري) في أوستن، الذي عرض أن يساعدني على الحصول على وظيفةلم ينتج عن

هذه المساعي حصولي على وظيفة، لكن جعلتني المساعدة التي قدمها غرباء أشعر بالأمل بأن الأمور ستنجح معي.

كنت لا أزال أريد أن أعرف سبب تسريحي من الجيش، فقررت أن أتصل بالرقيب الأول، فأخبرني بأن بإمكاني الحصول على تصريح مدة ثلاثة أيام لأزور القاعدة، وأتحدث مع العقيد، فوضعت ثياب غيار في حقيبة صغيرة، وأخذت سيارة أجرة إلى لاكلاند، وذهبت أولًا إلى المسجد، وتركت حقيبة ملابسي هناك ومدة الثلاثة أيام مكثتها هناك، وخلال النهار تنقلت من مكتب لآخر أطالب بمعرفة سبب رسوبي في الاختبار، لكني شعرت باليأس عندما أخبرني الجميع بأن أنسى الموضوع، وأحصل على وظيفة أخرى.

فقلت: أيها الرقيب، رجاءً أخبرني هل اجتزت الامتحان أم لا؟ لأنه لدي شعور قوي جدًّا بأني نجحت، ولكن المسؤولين في الجيش أمروا بترسيبي؛ ليسرحوني من الجيش، من المحتمل أن يكون حضور الصحفية قد جعلهم يشكّون تجاهي في نية التحاقي بالجيش.

رد علي الرقيب، ووجهه كله يملؤه الخوف من أن يقول شيئًا، معتقدًا أني سأخبر صحفية جريدة نيويوك، وتقوم بدورها بالكتابة، فردّ علي:

الرقيب: «لقد انتهت أيامك في الجيش يا فدوى، أنت شابة جميلة ومتعلمة وذكية، انسي الأمر، ولا تتعبي نفسك بالأسئلة، اذهبي وابحثي عن عمل في الخارج».

وفي أثناء ركوبي سيارة الأجرة عائدة إلى الكنيسة أغمضت عينيّ محبطة، وقررت ألا أمضي بقية حياتي أفكر في الجيش واختبار اللغة الإنجليزية، وبقدر ما كنت أشعر بالإحباط، لم أحصل على أي أجوبة، ولم أقترب من رؤية أطفالي؛ لذلك كان عليّ أن أركز طاقتي على شيء مفيد.

وفي اليوم المقبل اتصلت إيريكا بي، وسألتني إن كنت أريد أن ألقي نظرة على غرفتها الإضافية، وأرى إن كنت أريد العيش معها، وافقت على ذلك، فحضرت إلى الكنيسة بعد خمس عشرة دقيقة تقريبًا مع ابنتها آشلي.

«أتعلمين يا فدوى؟ دعينا أولًا نذهب، ونفعل شيئًا ممتعًا».

«حسنًا».

أخذتني إلى صالون تجميل مناكير وبدكير أظافري، اخترت اللون الزهري، وابتسمت أول مرة منذ أسابيع، وكانت (إريكا) قد بدأت تفهم مشاعري جيدًا.

«لا بد أنك اشتقت إلى الطعام الشرقي، ونحن نرغب كثيرًا في أن نجرب المأكولات الشرقية. هل تريدين أن تذهبي إلى متجر البقالة؟».

أخذتني إلى سوبرماركت اسمه (HEB) وهو سلسلة متاجر محلية، قررت أن أعد لهم وجبة المقلوبة، وهي طبق شرقي يتكوّن من أرز بسمتي وباذنجان وبطاطس ودجاج، ومبهّر بالقرفة وحب الهال والفلفل الأسود والزنجبيل، وبينما كنت أبحث عن البهارات والخضراوات أحضرت إيريكا لي مشغل أسطوانات مدمجة هدية.

ثم ذهبنا إلى منزل إيريكا، وأرتني غرفة فيها سرير وتلفاز وحمام قريب، التي سوف تصبح غرفتي إذا قررت أن أمكث معهم، تبعتني آشلي أسفل الدرج، وقالت لي:

«سوف تعيشين معنا للأبد!».

ضحكت أنا وإيريكا.

إيريكا: «إنها تحبك يا فدوى!».

ثم حضرت أم إيريكا، وكان ابنها (ألكس) الذي يبلغ ٩ سنوات هناك أيضًا. فأعدت الطعام لهم، وأعدت إيريكا الشاي، كانت هذه العائلة طيبة وحنونة، فعرفت أن هذا مكان مناسب لأبقى فيه حتى أتمكن من الانتقال إلى شقتي الخاصة.

بعد أن انتقلت للعيش في منزل إيريكا قررت أن أذهب في رحلة سريعة إلى نيويورك لأحصل على بعض الأشياء من المخزن الذي أضع فيه شنطي، كانت تذكرة الذهاب التي أعطاني إياها الجيش عندما سرّحت لا تزال صالحة، لكن تمكنت إيريكا من أن تحصل لي على تذكرة ذهاب وإياب مقابل ٢٠ دولارًا فقط عن طريق الشركة التي تعمل فيها، فاتصلت بأندريا ورواندا لأخبرهما بأنني قادمة، سافرت إلى نيويورك في ٢٧ كانون الثاني، ومكثت عند رواندا.

بعد ذلك ذهبت إلى وحدة التخزين في برنكس لأرى كيف يمكنني نقل أغراضي، ثم ذهبت إلى مبنى صحيفة النيويورك تايمز في منهاتن لأرى أندريا. فاتصل الحارس بها، ونزلت لتقابلني، ابتسم الحارس عندما جاءت إلى الرواق.

«آه، حسنًا، أنت تعرفها!».

عرفتني أندريا إلى أشخاص كثيرين يعملون هناك، وعانقتني سيدة، قائلة:

«نحن فخورون بك».

كان المبنى ضخمًا، ومن السهل أن يضيع المرء في ممرات الطوابق، لذلك بقيت بالقرب من أندريا في طريقنا لمكتبها، ثم توقفت عند مكتب رئيسها، فسلم قائلًا:

«لقد قمت بعمل جيد أنت وأندريا، أريد أن أشكرك على مشاركتنا قصتك، وآمل أن تستقر حياتك».

جلست مع أندريا في مكتبها، وتبادلنا الحديث قليلًا. أخبرتها عن حلمي بأن ألتقي الرئيس السابق (بيل كلينتون) في أحد الأيام.

«حقًّا؟ أنت تعرفين أنه يعيش هنا، أليس كذلك؟».

«لا، لا أعرف ذلك».

أرتني أندريا عنوان مكتب كلينتون على موقعه الإلكتروني، وأعطتني نسخة إضافية لقصتي لعدد صحيفة نيويورك تايمز التي تحتوي على مقالي.

«أعطِ هذه النسخة لموظفي الحراسة ليعطوها كلينتون، عندما تذهبين لزيارته، فربما يوافق على التحدث معك بضع دقائق».

«أتعتقدين أنه سيرحب بي؟».

«ولمَ لا يا فدوى؟».

«أنا مسلمة، وربما لن يسمح لي حراسه بالدخول».

«فقط اذهبي، وحاولي».

أخذت الصحيفة، وكتبت عنوان مكتب كلينتون، لكني شعرت بالخجل الشديد من محاولة التحدث معه، فطويت الورقة التي كتبت عليها عنوان كلينتون، ووضعتها في حقيبتي، وقررت أن أستمر في الحلم بأن أقابله يومًا ما.

كانت أندريا قد تسلّمت مكالمات ورسائل إلكترونية من ناشرين ووكلاء قرؤوا قصتي، ومن بينهم (كريستين) محررة دار النشر (Doubleday) التي كانت مهتمة بنشر مذكراتي، ووكيل في قناة تلفزيون (Lifetime) أراد أن ينتج فيلمًا تليفزيونيًّا عن حياتي، فقررت أن أذهب مع أندريا لألتقي كريستين. اتصلت بها أندريا، وفي اليوم المقبل التقت ثلاثتنا في مطعم (Remi) الإيطالي. وهناك تحدثنا قليلًا، ثم طلبت من عامله في المطعم أن تلتقط صورًا لنا، وقبل أن نغادر أخبرت كريستين بأنني تشرفت بمقابلتها.

«عندما أنتهي من تأليف كتابي، فسوف أعلمك بذلك».

وفي يومي الثالث في نيويورك ذهبت إلى شقة أندريا لتناول الشاي، وتحدثنا مع الوكيل من قناة «Lifetime».

«لا مانع لدي يا أندريا، في أن ينتج أحدهم فيلمًا عن حياتي، بشرط ألا يستغل قصتي ليُظهر الإسلام بمظهر سيئ، إن الأشياء السيئة التي حدثت لي مع المجتمع والأشخاص الذين في حياتي ليست بسبب ديني، وأنني مسلمة».

«نعم، أفهم ذلك، المجتمع والدين شيئان مختلفان».

ساعدتني أندريا على الاتصال بالوكيل ومناقشة العقد، تحدثنا معه أكثر من ٤٥ دقيقة، وأعطيته عنوان رامودنا (بعد أن طلبت إذنها) لم أكن متأكدة ماذا سينتج عن كل هذا، لكني كنت أبدأ حياة جديدة، وقررت أن أنفتح على أي خبرات جديدة يمكن أن أقابلها في طريقي.

ذهبت لاحقًا إلى مقهى ستاربكس مع جون، مدرسي السابق للغة الإنجليزية في المركز العربي الأمريكي لتعزيز الأسرة، فقال لي مازحًا:

«إن ضعت يومًا من الأيام يا فدوى، فما علينا إلا أن نبحث في كل مقاهي ستاربكس حتى نجدك».

شكرته على كل المساعدة التي قدمها لي.

«وأنت تساعديني أيضًا، فأنا أتعلم اللغة العربية منك».

قبل أن أغادر نيويورك زرت أصدقائي صفاء والطبيبة الإيطالية إوي وسميرة. لقد أردت أن أمضي المزيد من الوقت أتحدث مع أصدقائي، لكني اضطررت إلى أن أرجع لأبحث عن

عمل حتى أستمر في حياتي، أعطيت راموندا مفتاح وحدة المخزن خاصتي، وغادرت عائدة إلى سان أنطونيو، فأقلتني إيريكا بسيارتها من المطار.

وفي ذلك الأسبوع اتصل زوج أم كريستي، وعرض عليّ عملًا في شركة التقنيات الصحية المتكاملة (Integrative Health Technologies) وهي شركة صغيرة تنفذ فحوص كثافة العظام، فأخذتني إيريكا إلى المكتب، وقدمت نفسها إلى المشرف، وأرادت أن ترى بنفسها إن كنت سأعمل في بيئة آمنة.

«ما نوع العمل الذي ستقوم به فدوى؟ وكم ستدفعون لها؟».

في البداية أرادوني أن أدخل بيانات المرضى على الكمبيوتر، وسوف أجني ٧ دولارات في الساعة، لكنه كان عملًا بدوام جزئي؛ لذلك لن أحصل على تأمين صحي، ولن يقوموا باقتطاع أي ضرائب؛ لذلك كان عليّ أن أعبئ طلب الضريبة في نهاية السنة بنفسي، لم تكن هذه الوظيفة مثالية، لكني كنت في أمسّ الحاجة إلى وظيفة، فقبلت العرض.

بدأت أعمل لدى شركة التقنيات الصحية المتكاملة يومين في الأسبوع، وكانت إيريكا تأخذ آشلي إلى المدرسة، ثم تنزلني عند محطة الحافلات، كان علي أن أركب حافلتين إضافيتين لأصل إلى العمل.

أشعرتني إيريكا بأنني مرحب بي في بيتها، كانت امرأة أمريكية نصرانية، لكنها لم تحاول أن تضغط علي لأعتنق دينها، كما فعلت كريستي. وعندما كانت تجهز نفسها وأطفالها للذهاب إلى الكنيسة صباح أيام الأحد كانت ترحب بأن أذهب معهم، لكنها لم تمارس أي ضغط علي لذلك لم أشعر أبدًا بأن لديها خططًا سرية.

على الرغم من لطف إيريكا إلا أنني شعرت بالحزن وعدم الاستقرار، فقد كان لدي منزل تملؤه أصوات ضحك وبكاء وشجار.

وخلال الأشهر الأولى التي أعقبت تسريحي من الجيش كان (تود) (الذي التقيته في القاعدة في آخر يوم لي في الجيش) بمنزلة راحة لي من الاكتئاب الذي كان يثقل كاهلي، لم يكن يعرف قصتي في النيويورك تايمز، وذلك أشعرني براحة أكبر تجاهه، فقد علمت أنه لا يحاول استغلالي، وفي إحدى الأمسيات اتصل بي، وعزمني على العشاء في اليوم المقبل، فتحمست إيريكا عندما سمعت أنني سأخرج من المنزل، وأستمتع بوقتي.

«لديك موعد غرامي! يا أطفال، إن فدوى عندها موعد اليوم!».

بدأ طفلاها، آشلي وألكس، يقفزان لأعلى وأسفل.

«لا، لا. إنه ليس موعدًا غراميًّا، نحن فقط صديقان نمضي الوقت مع بعضنا».

ثبطت عزيمتها قليلًا، لكنها كانت لا تزال سعيدة من أجلي.

«حسنًا، إن كان شابًّا جيدًا، فلمَ لا؟».

«أنا لست جاهزة للمواعيد الغرامية بعد».

وعند الساعة ٨:٠٠ مساء اليوم المقبل حضر تود، فأعطتني إيريكا مفتاح المنزل في حال تأخرت بالرجوع، وأخبرت تود بأن يعتني بي، أخذني تود إلى مطعم إيطالي، وجعلني أضحك ساعات، وبعد أن تناولنا طعامنا انحنى تود، وهمس لموظفة المطعم بكلام لم أسمعه، لم يرضَ أن يخبرني بما قاله، وحاول أن يخفي ابتسامة، وبعد دقائق عدة عادت الموظفة إلى طاولتنا، ووضعت شريحة من كعكة الجبن أمامي عليها شموع عيد ميلاد، ثم غنت قائلة: «سنة حلوة يا جميل»، فالتفت الناس الجالسون على الطاولات الأخرى، وابتسموا حتى إن بعضهم صفق.

نظرت إلى تود، وهمست له، قائلة: «إنه ليس عيد ميلادي!».

لكنه ابتسم، وساعدني على تناول كعكة الجبن، ساعدتني هذه الحظات الجميلة على رفع معنوياتي لأستمر في حياتي، على الرغم من أن كل شيء في مستقبلي لا يزال غامضًا.

وعندما انتهت الأمسية أرجعني تود إلى منزل إيريكا، وهناك فتحت بريدي الإلكتروني، فوجدت أن أندريا قد أرسلت كثيرًا من الرسائل من أناس اتصلوا بها بعد أن نشرت قصتي، فقد أرادت مديرة التحرير لمجلة أرجنتينية اسمها «Mujeres Fuertes» أن يجري مقابلة معي، ووصلني بريد إلكتروني آخر من رجل يدعى (ستيفن)، وهو مضيف طيران يعمل لدى شركة دلتا للطيران. فأخبرني بأن شركة دلتا تبحث عن مضيفة طيران تتحدث اللغة العربية، وسيساعدني على التقدم لهذه الوظيفة إن كنت مهتمة بها. وبينما كنت أنظر لكل هذه العروض، وأحاول أن أقرر أيًّا منها سأقبل، سألتني إيريكا فجأة إن كنت قد تعلمت قيادة السيارة؟، فأجبتها قائلة:

«لقد تلقيت بعض الدروس، عندما كنت أعيش وحدي في نيويورك، وكنت أسوق سيارة صديقتي، ولكن لدي رخصة السياقة المؤقتة، وليس الدائمة».

تحدثت إيريكا في اليوم المقبل مع والدها تسأله عن اقتراحات، وفي عطل نهاية الأسبوع بدأت تسمح لي بالتدرب على سيارتها بشكل متوازٍ بين صفيحتي قمامة، وبعد أن تدربت بعض الوقت أخبرتني إيريكا بأنها تريد الذهاب إلى مكتب البريد، وعليّ أن أقود السيارة بنفسي، كنت متوترة، لكن كلما أجبرت نفسي على القيادة شعرت براحة أكبر خلف المقود.

في كل مرة أشعر فيها بأنني أحقق بعض التقدم يأتي شيء آخر ليذكرني بهشاشة حياتي، فقد قررت أن أتصل بابن أختي أحمد في الأردن، الذي كان معه وكالة بالنيابة عني، وأردت أن أعرف كيف تسير معاملة طلاقي من حمزة، بدا أحمد حزينًا عندما سمع صوتي، وقال لي:

«لقد كنت أنتظر مكالمتك يا خالتي، فقد تلقينا وثائق الطلاق النهائي من حمزة، لا تقلقي يا خالتي، فسوف تجدين شخصًا آخر».

فقلت له: «لكن لماذا أنت حزين لهذا؟ هذا لا يحزنني».

شعرت بالراحة عندما سمعت أن حمزة قد أرسل وثائق الطلاق، ووقعها أبي. فطلبت من أحمد أن يترجم هذه الوثائق، ويختمها في المحكمة، وأرسلت له حوالة مالية تغطي تكاليف الترجمة وإرسال النسخة الرسمية لي.

ثم اتصلت بوالديّ، وبدأت أمي بالبكاء، لكني ضحكت، فقد كنا عام ٢٠٠٧م ومرت ٧ سنوات ونحن منفصلان، ولكن كان يبدو الأمر صعبًا على والديّ، فالطلاق بالنسبة إليهما شيء مخزٍ أكثر من الانفصال، وشعرا بالاستياء؛ لأن سمعتي لطخت في غيابي.

نشجت أمي، قائلة: «ما أمر ذلك الرجل يا فدوى؟ لقد أنجبت منه خمسة أطفال ولديك عينان جميلتان».

حاولت أن أخفف من حزنها، وقلت:

«لماذا تبكين يا أمي؟ أنا لم أعش معه منذ عام ٢٠٠١م».

أخذ أبي سماعة الهاتف من أمي، وقال:

«أتعرفين ماذا فعل هذا الغبي يا فدوى؟! لقد وضع إعلانًا في الجريدة هنا كتب فيه أنك اختفيت في أحد الأيام، وتركت جميع أطفالك عنده ليربيهم وحده».

انفجرت غضبًا عند سماعي ذلك، فقد كان حمزة يعرف أنني في الولايات المتحدة، ويعرف لماذا لا أستطيع تربية أطفالي، وقد سمعهم يتحدثون معي على الهاتف مرات عدة، لكني قررت ألا ألقي اهتمامًا لذلك.

«لا بأس يا أبي، فقط أعطِ أحمد نسخة ليرسلها لي».

في البداية شعرت بالسعادة لتحرري من حمزة، لكني عندما جلست وحيدة في غرفة الضيوف في منزل إيريكا شعرت فجأة بالارتباك الشديد، فقد كانت كثير من الأشياء تحدث لي في الوقت نفسه.

وبعد برهة أتت آشلي إلى غرفتي، وأرادت أن تلعب معي، سألتني إيريكا إن كنت متعبة؟، فأخبرتها بما حدث، وتحدثت مع أندريا مرة أخرى، وأخبرتها عن طلاقي. كانت تعرف أنني مكتئبة، وسألتني إن كنت قد حاولت أن أبحث عن مستشارة اجتماعية؟ لم يكن لدي تأمين صحي، لكنها عرضت عليّ أن تتصل ببعض الأشخاص من أجلي، فاتصلت بأحد المستشفيات في (سان أنطونيو) لتخبرهم بالقليل عن حياتي، ثم اتصلت بي لتعلمني بما أخبروها به، لكن أخذتني إحدى زميلاتي في العمل اسمها (جلاديا) أمريكية الأصل إلى وسط المدينة؛ لأتقدم للحصول على تأمين يدعى «CareLink»، وهو تأمين صحي في ولاية تكساس مخصص للأشخاص ذوي الدخل القليل.

بعد حصولي على التأمين أخذت موعدًا مع مستشارة نفسية، اسمها (أدريانا) لأتحدث معها عن مشكلاتي، فتساعدني على إيجاد معنى لحياتي، (أدريانا) مستشارة نفسية تعمل في المستشفى، كانت أدريانا ودودة، وجعلتني أشعر بالطمأنينة فورًا، حتى إنها لم تهتم عندما أناديها سهوًا بأندريا بدل أدريانا. وبقيت أقابلها مرة شهريًّا لأتحدث معها عن التحديات التي أواجهها.

شجعتني كل من أدريانا وإيريكا على أن أبدأ التفكير حول طرق لأحرز تقدمًا في حياتي، وفي أحد الأيام بعد الظهر في شهر شباط رأتني إيريكا أقرأ كتاب «من العمل العسكري إلى العمل المدني»: فقالت لي:

«أوه، ما هذا؟».

ثم تصفحت الكتاب، وسألتني إن كنت قد فكرت في التقدم بطلب إلى دائرة شؤون المحاربين القدامى؟

«من المحتمل أن تتأهلي للحصول على معونة لتكملي دراستك الجامعية».

لم أعرف أين أذهب، لكنها بحثت في خريطة على الإنترنت، ثم غادرت إيريكا حتى تأخذ آشلي إلى المدرسة، وذهبت أنا لأستحم وأصلي، ثم قادت السيارة نحو مبنى (شؤون دائرة المحاربين القدامى) وهناك مرّر حارسان جهازًا محمولًا لكشف المعادن أمام جسدي، وطلبا مني أن أفرغ جيوبي، فقد علمت لاحقًا أن مريضين حاولا أخيرًا أن يقتلا شخصًا هناك؛ لذلك كانوا يتبعون إجراءات احترازية مشددة مع الزوار، ثم عبأت الكثير من الوثائق والنماذج، وأخبروني بأنهم سيتصلون بي ليعلموني بالنتيجة، لكن على الأغلب ليس قبل ستة أشهر أو سنة.

وفي هذه الغضون سألت رئيسي في العمل، (سام)، إن كان بإمكاني أن أعمل بدوام كامل لأجني بعض المال الإضافي؟، فوافق. وعندما بدأت أعمل بدوام كامل أصبح بإمكاني تحمل تكاليف شقة صغيرة على الرغم من أن عملي لم يكن عملًا مضمونًا، فأخذتني إيريكا وأمها للبحث في بعض الأماكن، وجدنا شقة ليست ببعيدة عن مكان عملي، وبعد أن رأيت بعض الشقق وقعت عقد إيجار، قرأت عقد الإيجار، لكني لم أعرف عمّ أبحث بالضبط، فقد تكوّن من سبع صفحات ومكتوب بخط صغير، ولم أكن أحمل نظارتي معي، حاولت إيريكا أن تلقي نظرة على صفحات عقد الإيجار، لكنها لم تنجح أيضًا، أعطتني إيريكا وأمها كنبًا قديمًا وخزانة كتب وبعض الكراسي وطقم أدوات للمطبخ؛ لتساعدني على تجهيز منزلي الجديد، وأعطتني إحدى صديقات إيريكا فرشة هوائية إلى أن أتمكن من شراء سرير حقيقي.

وبعد أن انتقلت إلى شقتي الجديدة بدأت أستقل الحافلة رقم ٥٠٩ إلى العمل. كانت هذه الحافلة تتوقف بالقرب من جامعة (إنكارنيت وورد)، وهي جامعة كاثوليكية تبعد بضعة صفوف من البيوت عن مكان عملي، فكنت كل يوم أمرّ بهذه الجامعة، وأرى طلابًا يحملون حقائب ظهر مليئة بالكتب والأوراق، ويصعدون درج المبنى الذي يعود إلى القرن التاسع عشر، شعرت بالغيرة قليلًا منهم، فوقفت أمام بوابة الجامعة أتحدث مع نفسي، فقد أردت أن أرجع إلى الجامعة لأنهي درجة البكالوريوس، أو حتى درجة الماجستير، لم لا؟ فما الذي يمنعني

الآن بعد أن فشلت كثير من الخطط في الماضي؟ لم ألاحظ دموعي تنهمر من عينيّ إلا عندما توقفت امرأة، وسألتني: «هل أنت بخير يا سيدتي؟» فمسحت بسرعة دموعي، وطمأنتها بأنني بخير، ثم ذهبت للعمل بسرعة، لكني بقيت أفكر في الأمر. ربما إيريكا على حق، وربما ستدفع دائرة المحاربين القدامى تكاليف الانضمام للجامعة، لكني لن أعرف شيئًا إلا بعد مرور بضعة أشهر أخرى.

بعد أن عشت وحدي أسابيع عدة جاءت إيريكا وآشلي لتطمئنا عليّ، فسألتني إيريكا إن كنت قد تسلّمت البريد الذي أرسلته لي، فأجبتها، قائلة:

«أوه، ليس لدي صندوق بريد، فلم يتح لي الوقت لأشتري واحدًا بعد».

«ماذا تعنين بذلك؟ يجب أن يكون هناك صندوق بريد في الشقة، ألم تعطك مديرة البناية المفتاح؟».

جرت العادة في نيويورك أن نشتري بأنفسنا صناديق البريد، لذلك لم أطلب المفتاح، ولم يعرض أحد إعطاءه لي. فذهبت إيريكا إلى المكتب لتسأل عن المفتاح، فأعطتها (تيفاني)، مساعدة المديرة، المفتاح ووجهها خالٍ من كل تعبير، ثم أحضرت إيريكا البريد إلى الشقة، وأخرجت منه كومة من الفواتير والدفعات المتأخرة الخاصة بالإيجار والخدمات، فذهبت أنا وإيريكا لنتحدث مع (تيفاني)، لكنها بدت غير مهتمة.

«أنا آسفة، لكن ليس بوسعنا فعل شيء».

فانفجرت إيريكا فيها قائلة: «لكنها غلطتكم! أنتم لم تعطوا فدوى المفتاح!».

لم تغير (تيفاني) موقفها أبدًا، لذلك غادرنا المكتب، في النهاية تسلّمت رسالة من دائرة المحاربين القدامى تقول: إن طلبي لا يزال قيد الدراسة وألا أتصل بهم، فهم سوف يتصلون بي، ووجدت أيضًا رسالة من مديرة السكن، (بوني)، تخبرني فيها بأنني أدين لهم بخمسين دولارًا، كانت تلك الرسالة مطبوعة على ورق حاسوب أبيض دون الختم الرسمي للسكن، ولم توضح لي لماذا أدين لها بهذا المبلغ، في أول مرة تسلّمت هذه الرسالة كتبت شيكًا بالمبلغ، وعندما تسلّمت رسائل مشابهة على مدى الأشهر الثلاثة المقبلة بقيت أدفع دون أن أستفسر من المديرة. لم أكن أعرف كيف تسير الأمور في (سان أنطونيو)، لذلك لم يخطر لي أن هناك خدعة في الموضوع. فأريت تلك الرسالة إلى (مونيكا)، إحدى زميلاتي في العمل،

ثم أرت مونيكا رسالتي لسام، فاتصل بمكتب شقتي ليتحدث مع بوني بالنيابة عني، إلا أنها أخبرته بأن لا أحد غيري مخوّل بالتحدث معها حول أي موضوع، لكنها رفضت أن تخبرني بأي شيء كلما ذهبت إلى المكتب.

تحدثت إلى (تود) وعرض عليّ أن يذهب للمكتب معي، حاولت أن أتصل ببوني لأرتب موعدًا معها، لكنها لم ترد على مكالماتي.

رجوت تود، قائلة: «ارتدِ زيّك العسكري!»، ففعل.

ذهبت أنا وتود إلى المكتب، ووجدنا هناك بوني وتيفاني والسكرتيرة مجتمعات في مكتب البناية، أخبرها (تود) أنه حضر ليساعدني على التواصل معهم، قالت بوني منزعجة:

«هل قرأت العقد قبل أن تأتي لتريني؟».

عبس تود، وقال:

«لا، لكن على ماذا يحتوي العقد؟».

«لا أحد مخوّل بالتحدث معي حول العقد باستثناء الشخص المذكور اسمه عليه».

حاولت أن أخبرها بأنني أريد تخويل تود بأن يتحدث حول العقد الآن، لكنها رفضت، ولم تتحدث معي أيضًا.

وفي اليوم المقبل أخبرت سام بما حدث، فنصحني بأن أطلب نسخًا عن جميع الوثائق التي وقعتها معهم، اتصلت ببوني، وأكدت لي أن بإمكاني أن أمرّ عليها غدًا قبل الساعة ٦:٠٠ مساء لآخذ النسخ من سكرتيرتها. وفي اليوم المقبل غادرت العمل مبكرة قليلًا، عند الساعة ٤:٣٠ مساء، حتى يتوافر لي الوقت لأصل إلى مكتب البناية، وهناك سألت السكرتيرة عن الوثائق؟ فقالت لي:

«أوه، إنها ليست جاهزة بعد».

«ومتى ستكون جاهزة؟».

«ارجعي غدًا».

اتصلت ببوني، وأكدت عليها أن تجهز نسخي في اليوم المقبل، فاعتذرت عن عدم توافر النسخ لديها، غادرت العمل مبكرة مرة أخرى، وكما الحال في اليوم السابق، لم تكن بوني في المكتب، ولم تكن النسخ مع السكرتيرة، فبدأت أصرخ، قائلة:

«لن أغادر هذه الغرفة حتى أحصل على نسخي!».

بدأت السكرتيرة حائرة، كيف ترد علي، وتأوهت، قائلة: «لكن عليّ أن أغادر، وأريد أن أقفل الأبواب!».

فرددت عليها، وأنا لا أزال مستشيطة غضبًا: «هذا لا يهمني سأنام هنا إن اضطررت إلى ذلك، أتريدين أن تتصلي بالشرطة؟ أرجوك استخدمي هاتفي».

بدأت تقفل الأبواب، وقالت:

«يجب أن نغادر الآن».

«لن أغادر، استنسخي الصور أتريدين أن أساعدك؟».

«أنا لا أعرف أين هو الملف».

ثم فتحت مكتب بوني، وفتشت في بعض خزانات الإضبارات، لكنها لم تجد اسمي على أي ملف.

فأخبرتها بهدوء: «هذه مشكلتك إن أضعت ملف أحد الساكنين».

اتصلت السكرتيرة ببوني، التي كانت تعيش في الشقة المجاورة لشقتي، وأخبرتها بأنني أرفض مغادرة المكتب، وبعد بضع دقائق دخلت مسرعة إلى الغرفة، وقالت لي:

«فدوى! كيف حالك؟ لقد ذهبت إلى الشاطئ مع ابنتي في عطلة نهاية الأسبوع، وأصابتني ضربة شمس رهيبة! وهذا سبب غيابي عندما حضرت».

«هذه ليست مشكلتي. أعطِني نسخي».

فتحت بوني مكتبها، وأخرجت ملفي من درج في طاولتها، وقالت لي:

«أتعلمين يا فدوى، لقد تذكرت الآن أن ماكينة التصوير لدينا معطلة، أيمكنني أن أعطيك النسخ غدًا؟ ما رأيك؟».

حدقت فيها بسخط، وأجبتها:

«سأنتظر حتى الغد فقط».

وفي اليوم المقبل أعطوني نسخي أخيرًا. فأريتها لسام، لكنه لم يجد أي شيء بين تلك النسخ المطبوعة بحروف صغيرة يفسر دفعي رسوم الخمسين دولارًا، وكانت رسوم أخرى، مثل رسوم نقل النفايات، تتغير من شهر لآخر دون تفسير. وبعد سنتين من هذا علمت أن بوني طردت بسبب سرقتها المال من ساكنين اشتكوا ضدها.

لم يقتصر كل ما حدث لي خلال أول سنة بعد تركي الجيش على الأمور السيئة فحسب. فعن طريق أندريا التقيت عددًا من الأشخاص تركوا أثرًا عميقًا في حياتي، حتى عندما عرفتهم مدة قصيرة فقط، فقد اتصلت بي أندريا، وأخبرتني عن امرأة تدعى فرانسيسكا، وهي صديقة أندريا وايت، زوجة رئيس بلدية (هيوستن). كانت فرانسيسكا تنظم مجموعة شهرية من نساء، وأرادتني أن آتي إلى هيوستن لألقي كلمة عن حياتي بوصفي امرأة شرقية تعيش حياتها هنا، وفي شهر الخامس من عام ٢٠٠٧م سافرت بالطائرة إلى هيوستن، وهناك أخذتني فرانسيسكا إلى جناح الضيوف في منزلها، وفي الطريق عرفتني إلى امرأة تدعى جوان هيرنج، لم أكن أعرف من هي تلك المرأة آنذاك، لكن لاحقًا في ذلك العام أنتج فيلم اسمه (حرب شارلي ويلسون) مثلت فيه جوليا روبرتس دور جوان.

بعد أن ألقيت الكلمة، التقطت فرانسيسكا بعض الصور لي، ثم اصطفت النساء لتسلمن علي، وأعطتني كثير منهن بطاقات شكر؛ لأني حضرت لأتحدث معهن، أخبرتني إحداهن بأنها مسلمة، وشكرتني على التصريح في كلمتي التي ألقيتها بأن مآسيّ الشخصية منفصلة عن ديني. ثم أعتذرت لي رئيسة بلدية هيوستن بأن زوجها كان يودّ الحضور بنفسه ليسلم علي، ولكن كثرة مشاغله منعته عن الحضور.

بقيت في هيوستن يومين قبل أن أرجع إلى منزلي وإلى العمل في شركة التقنيات الصحية المتكاملة. وبعد مدة قصيرة من عودتي التقيت (ماري)، التي أتت إلى شركة التقنيات الصحية المتكاملة لتنفذ فحصًا لكثافة العظام، وبعد أن أدخلت معلوماتها في الحاسوب طلبت منها أن تستلقي على جهاز تصوير العظام، وفي غضون انتظارنا للنتائج بدأنا نتحدث، فشعرت بأننا نعرف بعضنا منذ مدة طويلة.

أصبحنا بسرعة صديقتين خلال تلك المدة القصيرة، وقررنا أن نذهب لاحقًا لنحتسي القهوة مع بعضنا. وبدأنا نلتقي في عطل نهاية الأسبوع في سوبرماركت اسمه (سن هارفست) ونقود السيارة إلى متجر الكمبيوتر (أبل) في مركز (لا كانتيرا) للتسوق لنتلقى دروسًا في استخدام حواسيب ماك التي نمتلكها. كنت لا أزال على غير معرفة بالطرق كثيرًا لقيادة السيارة؛ لذلك أرتني ماري كيف أسلك طرقًا مختصرة. كانت ماري مسيحية، لكنها لم تحاول أبدًا إجباري على اعتناق معتقداتها، وكانت تأتي لشقتي لاحتساء الشاي، ونجلس بهدوء في غرفة المعيشة، أو نتحدث، أو نضحك، وعلى الرغم من أن خلفياتنا الثقافية والدينية مختلفة، إلا أننا حظينا بصداقة نادرة ورابطة تجاوزت اختلافاتنا، أصبحت أنا و ماري مصدر دعم كبير لتغيير حياتنا بما مررنا به من الاضطراب في حياتنا.

وفي ذلك الوقت تقريبًا أرسلت أندريا لي بريدًا إلكترونيًّا من رجل يدعى (داميون) إفريقي أمريكي، الذي أراد أن يتعلم قراءة القرآن. كان داميون يخضع للتدريب الأساسي في ولاية مسيسبي، ويحضر نفسه للذهاب إلى العراق. فتحدثنا على الهاتف، وسألني إن كان بالإمكان أن أبقى أتواصل معه وهو خارج البلاد. فكنا نتبادل الرسائل الإلكترونية خلال مدة امتدت أشهرًا عدة، واستمررنا في الكتابة إلى بعضنا بعد أن ذهب إلى العراق.

وفي شهر كانون الثاني عام ٢٠٠٧م مرت بضعة أيام دون أن أتلقى أي بريد إلكتروني من داميون. فأرسلت له بريدًا إلكترونيًّا أسأله فيه إن كان بخير؟ ثم أخبرني في النهاية بأن أربعة جنود قد فقدوا في أعقاب غارة، لكنهم وجدوا ميتين، وكانت جميع خطوط الهاتف والإنترنت مفصولة.

أنا لست خائفًا بعد الآن. لا أعرف لماذا، لكني أواجه الأمور بشجاعة، ربما من أجلك، وربما من أجل الآخرين حولي، أرجوك اتصلي بأختي في واشنطن العاصمة، وأخبريها بأنني بخير كانت الليلة الماضية ليلة سيئة، لكني بخير الآن، وفعلت، فاتصلت بأخته، وطمأنتها.

وفي يوم الجمعة اتصل بي دايمون. بدا صوته كأنه كان يبكي.

«إنه لا يدعني أذهب يا فدوى».

«من؟».

«المدرب العسكري لا يدعني أنا وجندية مسلمة نذهب إلى المسجد، لقد عاملني معاملة سيئة منذ أن عرف أنني مسلم».

حاولت أن أطمئنه، قائلة:

«لا عليك لا تنزعج من هذا، فوضعك يسمح لك بأن تصلي أينما كنت، حتى في خيمتك».

«أنا لا أعرف كيف أصلي».

«سوف أرسل لك بالبريد الإلكتروني بعض السور القرآنية لتساعدك».

ثم سمعت الرعب في صوته يتلاشى شيئًا فشيئًا، فشكرني، وطلب مني أن أرسل له بالبريد كعك رقائق الشوكولاتة، فأشياء كتلك تساعد الجنود على عدم التفكير في الحرب، حتى لو برهة.

«ما عدد الجنود الذين معك؟ لا يمكنك أن تحتفظ بكل الكعك لنفسك!».

فاشتريت المكونات، وخبزت ما يكفي خمسين جنديًّا، ثم لففتها بالقصدير، ووضعتها في صندوق مبطن بصحف الجرائد، وفي مكتب البريد أخبرني الموظف بأن رائحتها زكية. أخبرت (دايمون) بأنني أرسلت الكعك، وأخبر بدوره الجنود الآخرين، وعندما وصل الكعك أخيرًا بعد بضعة أيام، اجتمع جنود كثيرون ينتظرون (دايمون) أن يفتح الصندوق، وعندما نزع غطاء الصندوق، وجدوا كومة كبيرة من فتات كعك رقائق الشوكولاتة.

شعرت بخيبة أمل عندما أخبرني (دايمون) بذلك. وقلت له:

«أوه، إذن رميتموها في القمامة؟».

«ماذا؟! لا! لقد اشترينا البوظة، ومزجناها بفتات الكعك. على فكرة، أنا أعرف سرك، هذه ليست صناعة منزلية، لقد ذهبت إلى المتجر، واشتريتها جاهزة! لكن لا بأس، فقد كانت لذيذة».

«لا، لم أشترِها من المتجر! لقد خبزتها بنفسي!».

قرر (دايمون) أن يردّ المعروف، وأرسل إلي كاميرا صغيرة وأرجيلة، وأخبرني بأن بإمكاني استخدام الأرجيلة زينة إن لم أرد التدخين.

«لا تتخلصي منها!».

«لن أفعل».

بقينا صديقين بالمراسلة مدة عام ونصف العام تقريبًا، لكننا لم نلتقِ شخصيًّا أبدًا. ثم انتقل دايمون إلى واشنطن العاصمة، وبعد مدة قصيرة توقفنا عن التواصل.

وفي ذلك الوقت أتيحت لي الفرصة أيضًا بمعاودة التواصل مع صديقات قديمات، فقد اتصلت بي لودميلا (وهي امرأة روسية يهودية تعرفت إليها في كلية برامسون أورت)، وسألتني إن كنت أرغب في الانضمام إليها وإلى بعض صديقاتها في رحلة بحرية بباخرة أشبه بالتايتنك إلى المكسيك؟ كان ذلك بالضبط ما أحتاج إليه لأتوقف عن التفكير في كل شيء فشل في حياتي، لذلك أخذت إجازة عمل بضعة أيام، واشتركت في الرحلة. كانت السفينة مثل مدينة عائمة، فقد احتوت على برك سباحة وقاعات رقص وماكينات قمار ومطاعم ومسارح وكل شيء. بقيت لودميلا تحاول إقناعي بأن آكل أكثر؛ حتى أكسب بعض الوزن، وأصرت أن ذلك شيء ضروري، وفي إحدى المراحل نجحت في إقناع الكابتن بأن يسمح لي بقيادة السفينة بضعة أميال، وبعد مدة تجاوزت الأسبوع بقليل عدت إلى سان أنطونيو أشعر بالانتعاش.

لكن كما اتضح سريعًا، كان ذلك الأسبوع مجرد فصل قصير بين حلقات مؤلمة.

في شهر تشرين الثاني من عام ٢٠٠٧م تسلّمت عند الساعة ٤:٣٠ صباحًا مكالمة غير متوقعة من محمود، الذي يعيش في إيطاليا الآن.

«استيقظي يا فدوى!».

أجبرت نفسي على الاستيقاظ من أعماق نومي، وأدركت أنه كان يبكي.

«ما الخطب؟ هل والداي بخير».

«إنهما بخير، إنه طلعت».

كان طلعت، أصغر إخواني، لا يزال يعيش في السعودية، وكان يعاني الربو منذ أن كان طفلًا صغيرًا، لكنه رفض بعناد أن يترك التدخين، وفي أثناء قيادته شاحنته اضطر إلى أن يتوقف على جانب الطريق، وهو يسعل بلا انقطاع، أوقف رجل هندي سيارته، وحاول مساعدته، لكن طلعت فقد الوعي، وأخذه الرجل الهندي إلى المستشفى، لكن لم يكن بوسع الأطباء فعل شيء لم يتجاوز عمر طلعت الثانية والثلاثين، عندما توفي (أسكنه الله فسيح جناته).

اتصلت بوالديّ لأرى كيف يتعاملان مع الأمر، كانت أمي تبكي على الهاتف، ولم تستطع التحدث، أما أبي فكان أكثر رزانة وصبرًا، وتحدث معي، لكن حول أمور غير عاطفية؛ حتى لا يستسلم للحزن، أصبحت أتصل بوالديذ كل يوم، وفي اليوم الثالث رفضت أمي أن تتحدث معي، أخبرتني عمتي لاحقًا بأن أمي كانت غاضبة مني في الحقيقة كل العائلة كانت غاضبة مني.

«لماذا؟».

«ولداك يحتاجان إليك! لماذا لم تأتِ إلى الأردن لتكوني معهما؟ لا توجد أي امرأة في هذه العائلة تعيش وحدها إلا أنت لقد ارتكبت شيئًا مشينًا».

ولكن ماذا أقول لهم الآن، يلومونني بعد أن كان الجميع السبب في خروجي من الأردن بائسة وحزينة ومكسورة الخاطر؛ لعدم وقوف أحد من أهلي بجانبي ومساعدتي ودعمي ماديًّا ومعنويًّا، ولماذا الآن بعد أن بدأت بخطوات إيجابية في حياتي.

خلال الأيام القليلة المقبلة حاولت جاهدة بالتفكير في عذر يهدئ قلق عائلتي من عيشي وحدي، فاتصلت بأختي نعمة، وقلت لها: إنني تزوجت رجلًا أمريكيًّا مسلمًا، وإنني لم أخبر أحدًا؛ حتى لا يكتشف حمزة الأمر، ويمنعني من رؤية أطفالي ثانية، ثم اتصلت بسميرة، وأخبرتها بالقصة نفسها، فقد عرفت أنني عندما أخبرهما بذلك، فستعلم كل العائلة بالقصة، ويتوقفون عن القلق بشأن عيشي وحدي، ثم أصبحت أتصل بأمي مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة وجب علي الإجابة عن أسئلة حول زوجي الجديد وشخصيته، وإن كنت سعيدة أم لا؟ أخبرتها بأنه لا يتحدث اللغة العربية (بالطبع، حتى لا تطلب مني التحدث معه على الهاتف) وأمضى فترات مختلفة في أفغانستان والعراق.

علاوة على حاجتي إلى إيجاد رجل حقيقي، عندما يأتي اليوم المحتم، وتطلب عائلتي فيه أن تقابل (زوجي)، كان علي أيضًا أن أرجع إلى الجامعة؛ حتى أحصل على عمل أفضل. تخرجت صديقتي الجديدة ماري في برنامج مسائي اسمه (ADCaP) وحصلت على البكالوريوس، وهو برنامج يساعد البالغين العاملين على إنهاء دراستهم الجامعية في الجامعة التي أمرّ من أمامها كل يوم، وأنا ذاهبة إلى عملي، فسجلت في البرنامج، وبدأت آخذ حصصًا دراسية، وخلال فصلي الأول جعلتنا بروفسورتنا نشترك في تمرين لرفع الكلفة بيننا من خلال إخبار زملائنا في الصف بأحد أسرارنا. كان لبعض الطلاب أسرار جدية، مثل إصابته بالسرطان دون أن

يعرف أحد في العائلة، أما أنا فكان سري الزواج المزيف. فبدأت زميلاتي في الصف يقترحن عليّ أن أبحث عن زوج حقيقي. ما عليك يا فدوى، إلا أن تذهبي، وتتجولي في متجر HEB أو Wal-Mart بحثًا عن شبان عسكريين. شكرتهن على اقتراحاتهن، ونسيت الموضوع كله.

نجحت قصة الزوج الجديد مع عائلتي ما جعلني أستخدمها مع زميل لي في العمل كان يزعجني على الدوام، لكنني دعوت هذا الرجل الخيالي برفيقي بدلًا من زوجي. وكان لأحد زملائي في العمل يدعى (مايك) وهو زنجي أمريكي تخيلات رهيبة عن تفكيره في الحياة الجنسية والدين، وظل يسألني مرارًا وتكرارًا: لماذا لا أستطيع ممارسة الجنس قبل الزواج؟، لكنه سبب التزامي بعقيدتي لدرجة التخلي عن ممارسة الجنس.

«أنت في أمريكا الآن، ويمكنك الاستمتاع بحياتك هنا».

ولأحاول أن أمنعه عن طرح الكثير من الأسئلة ودعوتي مرارًا وتكرارًا إلى شقته «لنستمتع بوقتنا»، أخبرت (مونيكا) أن لدي رفيقًا يؤدي خدمته العسكرية في العراق، قلت ذلك بصوت عالٍ كفاية ليسمعنا (مايك). لكن لسوء حظي لم يثنِه ذلك فحسب، بل ازدادت محاولاته للتقرب مني، فدخل إلى غرفة المكتب، بينما كانت (مونيكا) في الحمام، وسألني: متى سيعود رفيقي؟

كذبت، قائلة: «في شهر أيار».

«ألا يمكنك ممارسة الجنس حتى أيار؟ سألني مايك إن كنت لا تستطيعين أن تنتظري كل هذه المدة، فأنا موجود، وسأتطوع لهذه المهمة».

أخبرت مونيكا بما حدث، فحثتني على إخبار سام، لكن لم أستطع فعل ذلك؛ لأنني كنت خائفة من فقدان عملي، فقد عمل مايك هناك مدة طويلة، وأيضًا شريك في الشركة، وليس لدي دليل، وهكذا قررت ألا أثير المشكلات، وأبقي فمي مغلقًا.

لكن في شهر آذار من عام ٢٠٠٨م طلبت مني الشركة أن أذهب إلى دالاس مع مايك لأحضر مؤتمرًا، وعندما عرفت أنني سأركب معه في السيارة نفسها مدة خمس ساعات تقريبًا كان علي أن أقول شيئًا، فذهبت إلى مكتب زميلتي في العمل، (بيتي) زوجة سام، وأخبرتها بأنه من المستحيل أن أركب السيارة مع مايك، وأخبرتها أيضًا عن كل ما حدث بيني وبينه، فقالت

لي بيتي: إن عليّ فورًا إخبار كلا المشرفين، سام ورئيسنا (جيل). فذهبت إلى مكتب شيرلي (وهي زوجة جيل وسكرتيرته وأم بيتي) وأخبرتها بأن من المستحيل أن أركب السيارة مع مايك، فاتسعت عيناها، وبدأت تخبرني بألا أتجنب الناس ذوي البشرة المختلفة عني، لكني قاطعتها، وأكدت لها أن ليس لهذا الأمر علاقة بالموضوع، ثم سألت شيرلي مونيكا لاحقًا إن كنت أرفض الركوب مع مايك لأنه رجل أسود؟

فأجبتها، قائلة: «أنا لست عنصرية، ولدي كثير من الأصدقاء الإفريقيين».

وعندما أخبرت جيل جعلني أكتب كل شيء أتذكره حول ما حدث بيني وبين مايك.

«لماذا لم تخبرينا بذلك يا فدوى؟».

«إنه جزء من الشركة منذ مدة طويلة، ولم أرغب في إثارة المشكلات».

كتبت إفادة كاملة، وأعطيتها لجيل. وفي صباح اليوم المقبل حضرت للعمل، ووجدت سام وجيل ومحامٍ ينتظروني، أرادوا أن يتحدثوا معي مرة أخرى عما حدث بيني وبين مايك، كان ثلاثتهم ودودين، لكن توقفت شيرلي كليًّا عن التحدث معي.

كنت أعرف أنني سأترك العمل في شركة التقنيات الصحية المتكاملة بسرعة بعد أن اشتكيت من مايك فعلى الرغم مما قاله جيل، إلا أن مايك جزء أكثر أهمية مني في ذلك المكتب، ولن يكون أول من يطرد، ففي ١٨ حزيران ٢٠٠٨م ذهبت إلى المكتب في وقت مبكر من الظهيرة، كانت الغرفة هادئة هدوءًا غريبًا. فقد ذهب الجميع لبيوتهم عند الظهر، ولم يرجع أحد بعد أن انتهت فترة الغداء. استدعاني جيل لمكتبه في الساعة ٣:٣٠ مساءً، وأعطاني ورقة لأقرأها. فارتعشت يداي، عندما قرأت الوثيقة التي توضح تفاصيل نهاية عملي في الشركة.

«أتطردني؟».

«لا، أنا لا أطردك لقد تم تعيينك جزءًا من منحة، وانتهت هذه المنحة الآن. وإضافة إلى ذلك نحتاج إلى شخص بمهارات أكثر في استخدام الحاسوب، سوف نرسل لك بالبريد ٧٠٠ دولار أجرًا إضافيًّا».

كانت تلك أول مرة يخبرونني بأن راتبي عبارة عن منحة، وأن منصبي كان مؤقتًا.

«هل تطردوني لأنني اشتكيت من مايك؟».

«لا! ليس هذا هو السبب أبدًا، نحن لا نطردك، فكما وضحت لك كانت المنحة مدة محدودة، ولا نحتاج إلى منصبك بعد الآن، لكن لا تنسي أنك تعلمت الكثير في أثناء عملك هنا ولديك مكان تعيشين فيه، ولديك سيارة يمكنك قيادتها».

تمالكت أعصابي؛ حتى لا أقفز على الطاولة، وأدق عنقه، ثم قلت له:

«هل تعتقد يا جيل، أنني لم أكن امرأة متعلمة عندما جئت إلى هنا؟ وهل تعتقد أنني عشت في الشوارع طوال حياتي؟ هذا غير صحيح».

ثم نظفت مكتبي، وقبل مغادرتي جعل جيل أحدهم يغير قفل الباب الأمامي. كتب سام لي رسالة توصية، لكن لم يدفعوا لي راتب آخر مئة ساعة عملتها، ولم أتسلّم السبع مئة دولار التي وعدوني بها، فغادرت المبنى، وبكيت في سيارتي.

وعندما استرجعت رباطة جأشي اتصلت بالراهبة (أنيلا)، وهي امرأة التقيتها في شركة التقنيات الصحية المتكاملة قبل بضعة أسابيع، عندما أجريت تصويرًا لعظامها، كانت أنيلا راهبة وعضوًا في جمعية راهبات الكلمة المجسدة، والمتصلة بالجامعة التي كنت أمرّ بها كل يوم في طريقي للعمل، لم تكن أنيلا كأي راهبة سمعت بها، فلم تكن متزمتة، وتحب أن تلقي النكت، بعد أن طردت من عملي طلبت منها أن تساعدني في إيجاد عمل آخر، وبعد أن اقترحت علي بعض الخيارات رست أخيرًا على برنامج (Sisters Care) العناية بالراهبات بوصفه خيارًا مناسبًا لي. البرنامج يهدف إلى مساعدة الأشخاص العجزة الذين يعيشون في مجتمع بنايات مخصصة للمتقاعدين، وسوف يعطوني راتبًا مقابل تغيير الشراشف وشراء البقالة، أو ربما أسوق بأحد المقيمين لموعد طبيبه.

ولحسن الحظ تمكنت من العمل بدوام جزئي في برنامج (Sisters Care) وأساعد مقيمة اسمها السيدة (نيكولاس). كان عمر السيدة نيكولاس ٧٤ عامًا، وكلما أحضروا لها أحد للمساعدة لا يمكث معها طويلًا، ويترك العمل لأن نيكولاس كانت صعبة المزاج.

فقامت: راتشيل وباتريشيا مديرتا برنامج (Sisters Care) بترتيب موعد لي لأعاون السيدة نيكولاس، وعندما التقيتها لم تتمكن من فهم اسمي (فدوى) على الرغم من أنني قلته لها مرات عدة، فاستسلمت في النهاية، وأخبرتها بأن اسمي (سارا)، فارتاحت لذلك، وكان سهلًا عليها أن تناديني، وبينما كنت أغير شراشف سريرها، وأغسل ثيابها أردت البكاء، فقد كنت أملك منزلًا فيه خادمة وبستاني. لكن عليّ الآن أنا أنظف شقة شخص آخر مقابل المال.

رأيت صورتيّ رجلين موضوعتين على تلفاز السيدة نيكولاس، فسألتها:

«أهما ابناك؟».

«لا، فليس عندي أي أبناء، أجابت بغضب.

وفي وقت لاحق أخبرت راتشيل وباتريشيا عن غضب السيدة نيكولاس لسؤالي. فاستغربتا من قولها: إنه ليس لديها أبناء.

اقترحت راتشيل، قائلة: «ربما هي غاضبة منهما».

بدأت علاقتي مع السيدة نيكولاس تصبح أكثر دفئًا، فقد ساعدتها على تصليح آلتها الطابعة، وتحدثت معها حول حصصي الدراسية. وأخبرتني عن الأيام التي أمضتها معلمة، ففي إحدى السنوات كان أحد أبنائها طالبًا عندها. وكان زوجها قد توفي حديثًا، لذلك قرر ابناها أن يبيعا بيتها، وينقلاها إلى بيت العجزة.

نيكولاس: «كنت أحب زوجي كثيرًا، وكنا نسافر دائمًا».

في أثناء سنواتهما مع بعضهما سافرا إلى المكسيك وتونس واليونان وتركيا، وقبل أن أغادر تحدثنا قليلًا عن خبرتها في الخارج. ثم اتصلت السيدة نيكولاس بباتريشيا، وأخبرتها بأنها لا تريد معاونة أي شخص إلا سارا. وبعد بضعة أسابيع اتصل أحد أبناء السيدة نيكولاس بباتريشيا، وأخبرها بأن أمه تحسنت كثيرًا، بقيت أزورها بضعة أسابيع أخرى، وآخذها إلى صالون التجميل والطبيب، وأعطتني كرت عملته بنفسها على الكمبيوتر، وكتبت قصيدة عن أنني ملاك، كتبتها بنفسها.

خلال كل تلك الأشهر لم تتوقف عائلتي عن إزعاجي بشأن رغبتهم في مقابلة (زوجي). ففي أحد الأيام تلقيت مكالمة مفاجأة من سميرة، صديقتي في نيويورك أخبرتني أن لزوجها صديقًا يدعى (تحسين)، وهو رجل فلسطيني ومطلق يعيش في ولاية (أريزونا)، ويريد الزواج مرة أخرى، لم ترد أن تكون لحوحة، لكنها ستعطيه رقم هاتفي إن كنت مهتمة بالأمر، ولأني في حاجة إلى أن أجد شخصًا حقيقيًّا أقدمه لعائلتي، قررت أن آخذه في الحسبان، أعطته يا سميرة رقم هاتفي، فبدأت أنا وتحسين نتحدث من خلال كاميرا الإنترنت، كان يبدو رجلًا لطيفًا، وكنت واثقة من أن سميرة وزوجها لن يورطاني مع رجل سيئ، ثم أخبرت ماري بأنني سأقابل شابًّا يبحث عن زوجة جديدة، وأنني أفكر بجدية في الزواج منه.

«ماذا قلت؟»

«لقد تحدثنا مع بعضنا على الهاتف، إنه يعيش في أريزونا، لكنه سيأتي لزيارتي هنا في عطلة نهاية الأسبوع هذا، فعائلتي غير سعيدة بعيشي وحدي هنا، ولأكون صادقة معك، أنا أعتقد أنه من الجميل ألا أعيش وحدي بعد الآن».

ردت ماري عليّ، قائلة: «يجب أن أقابله معك، فأنا لا أريد أحدًا أن يجرح مشاعرك ثانية».

كنت قد تحدثت أنا وتحسين مع بعضنا على الهاتف مدة أسبوعين فقط، عندما جاء إلى سان أنطونيو، ووصل في منتصف ليلة الجمعة تقريبًا، وساعدتني ماري وصديقتها (فريرنون) على مقابلته في المطار، وأخذه إلى فندقه، وفي اليوم المقبل أخذتنا ماري وفيرنون إلى الحدائق اليابانية، وتمشينا ساعات هناك، نتحدث عن خططي لإكمال تعليمي والبيت الجديد الذي اشتراه حديثًا، لكنه أرادني بكل تأكيد أن أستمر في الذهاب إلى الجامعة، وسوف يبحث هو أيضًا عن برنامج مشابه في أريزونا، لقد أعجبنا ببعضنا، لكني أردت أن آخذ وقتي لأتعرف إليه جيدًا، وافق تحسين على أن يأخذ إجازة مدة أسبوعين ليرجع إلى سان أنطونيو. وعرفت منه أنه هو أيضًا خدم في الجيش الأمريكي مترجمًا مدة سنتين.

لم أطلب من تحسين أن يعطيني مهرًا، فكلانا أكبر سنًّا الآن، وكلانا تزوج من قبل، كان لدى تحسين منزل، وكلانا لديه أثاث، وأنا لم أرد خاتمًا فاخرًا، لكني أردت أن أشتري بعض الملابس الجديدة؛ حتى يكون لدي شيء جميل أرتديه في حفلة الزفاف وفي الأيام القليلة المقبلة، ولم أخطط لرحلة شهر عسل، لذلك أقل ما يمكنني فعله هو ارتداء بعض الملابس الجميلة، أما ماري فشجعتني على أن أطلب من تحسين مساعدتي على دفع ثمن بعض الملابس الجديدة.

«سوف أذكرك يا فدوى، بشيء تخبريني به دائمًا، صلي وحفزي نفسك، أنت لا تملكين المال، فاطلبي منه».

وهكذا اتصلت بتحسين، فدهشت عندما وافق فورًا على مساعدتي قائلًا:

«بالطبع، لم لا؟».

«حقًّا؟ هذا رائع! شكرًا لك!».

اتفقنا على أن أقيد بعض الأغراض على بطاقتي الائتمانية، ويكتب هو لي لاحقًا شيكًا؛ ليعوضني عن تكاليف تلك الأغراض. فأخذتني ماري للتبضع، واخترنا فستانًا زهريًّا باهتًا ذا حاشية غير متماثلة وخرز حول تقويرة العنق، وسيكون هذا فستان عرسي، واشتريت أيضًا فستانًا أحمر وبعض الملابس الداخلية الجديدة، وصنادل قيدت على بطاقتي الائتمانية ٢,٠٠٠ دولار قبل حتى أن أعي ذلك.

طمأنتني ماري، قائلة: «لا تقلقي! هذا لا شيء، فأنت لم تطلبي إقامة حفلة كبيرة، تكلف عادة ١٠,٠٠٠ دولار. فلا سبيل للمقارنة».

عندما ذهبت للعمل هنأتني السيدة نيكولاس، وأعطتني طبقًا من الحلوى الفضية هدية زفاف، وأخبرتني بأن هذه المرة ستكون مختلفة، وسيكون بالنسبة إلي رجلًا أفضل مما كان حمزة.

جاء تحسين إلى سان أنطونيو ليمضي زيارته الموعودة، فجلبت، أنا وماري وفيرنون، تحسين من المطار، وتناولنا الغداء مع بعض، ثم أخبرت (ماري) تحسين بأن يعتني بي إن قررنا الزواج. ثم قالت:

«إن اتصلت بي فدوى، وأخبرتني بأنك تضايقها فسوف أقود شاحنتي إلى أريزونا، وأحضرها إلى هنا، فأنا لا أريد أن يجرح أحد مشاعرها».

«وماذا لو ضايقتني هي؟».

«لا أعتقد ذلك».

ضحكنا جميعًا، ثم أنزلنا تحسين عند الفندق، ووعدني أن يأخذني إلى مطعم جميل في اليوم المقبل، نحن الاثنان فقط. كان موعدنا الخاص هذا أول علامة على وجود خطب ما في تحسين، وقدت سيارتي إلى مكان الفندق، ونزل تحسين، وابتسم لي، وقال: ما رأيك في أن أقود سيارتك، فوافقت، واعتقدت أنه سيأخذني إلى مطعم راقٍ، فأوقف السيارة في موقف مطعم وجبات سريعة للأطفال يدعى (بيتر بيتزا). وبعد أن طلبنا وجبتينا بدأ يسألني أسئلة غريبة؟

«كم من المال لديك في حسابك بالبنك يا فدوى؟».

«ماذا؟».

«لقد كنت في الجيش، ومن المؤكد أنك تجنين الكثير من المال!».

أخبرته بالحقيقة، أي إنني قادرة على إعانة نفسي فقط، فلم يكن لدي المال الكثير، ومن ناحية أخرى كان لتحسين تاريخ ائتماني سيئ جدًّا أطلعني بنفسه على ذلك، ثم طلب مني أن يستخدم حاسوبي الذي أحمله في سيارتي؛ لأني أستخدمه في الجامعة؛ حتى يرى بريده الإلكتروني، فذهبت إلى سيارتي لأجلب حاسوبي المحمول، وبعد أن قرأ بعض الرسائل الإلكترونية ذهب إلى المرحاض، لاحظت أن بريده الإلكتروني لا يزال مفتوحًا، فنظرت إلى بريده الوارد، ووجدت رسائل إلى نساء كثيرات يواعدهن على الإنترنت، حتى بعد أن بدأنا نخطط للخطبة. وكان أيضًا مدينًا لإحدى زوجتيه السابقتين بمبلغ ١,٠٠٠ دولار نفقة لأولاده.

أطفأت حاسوبي. وفي اليوم المقبل ذهبنا إلى سوق (لا كانتيرا) التجاري لنشتري خاتم الخطوبة، لم يقتنع تحسين بأي من الخواتم التي اخترتها، حتى عندما وجدت واحدًا بـ ٣٠٠ دولار، ثم أمسك تحسين يدي، وأخذني للخارج، وقال لي:

«أريد أن أكون صادقًا معك أنا لا أملك المال أبدًا».

بطريقة ما لم أدرك تمامًا كم كان مفلسًا.

«لكنك أخبرتني بأنك تملك المال، فأنا أنفقت ٢,٠٠٠ دولار.

«أنا آسف، لكني لا أملك شيئًا، ولا أستطيع أن أدفع لك ٢,٠٠٠ دولار».

«لماذا لم تخبرني بذلك قبل أن نأتي إلى هنا؟».

«لم أرد أن أجعلك حزينة».

«لقد فعلت ذلك على أي حال».

«ما رأيك أن أشتري لك خاتمًا مزيفًا بعشرة دولارات؟».

«لا، أنا لا أريد شيئًا أنا عندي حساسية على أي حال».

«أخبرتني بأنك تخططين للذهاب للأردن هذا العام، سوف أعطيك بعض المال قبل أن تذهبي حتى تشتري لنفسك خاتمًا من هناك، فالخواتم أرخص هناك».

«أنا لا أريد خاتمًا».

ثم ذهبنا إلى مقهى ستاربكس، واشترينا القهوة والكعك. فدفعت ثمنه، وسألت تحسين إن كان يريد شيئًا؟، فقال: لا، وبعد بضع لحظات أخذ كوبًا فارغًا من على الكاونتر، وصبّ نصف قهوتي فيه، شعرت بأن ذلك كابوس رهيب، وفي عودتنا كان الوقت وقت غداء تقريبًا، لكنه لم يقترح أن يشتري أي شيء، لقد كنت أحاول أن أدخر مالي؛ حتى أتمكن من زيارة أطفالي؛ لذلك لم أستطع أن أكون المرأة المدللة لهذا الرجل.

في تلك الليلة دعتنا ماري وفيرنون على حسابهما الخاص لتناول العشاء معهما في مطعم (أبراج أمريكا) وهو من أرقى وأغلى المطاعم في سان أنطونيو، فسألتني ماري بهدوء: ما الخطب؟

«لا أعرف. لا شيء».

طلب تحسين شريحة لحم، لكن عندما قطعها بالسكين وجد أنها غير مطهوة جيدًا كما يريد، فنادى على المضيف، وقال له:

«لقد أخبرتك بأن تطهو شريحة اللحم هذه جيدًا! هل ترى الدم؟!».

فوبخته بالعربية، قائلة: «لا تتحدث معه بهذه الطريقة!».

«لكننا سندفع ثمنها! لذلك يجب أن تكون كما نريدها!».

«أنت لن تدفع شيئًا!».

كرهت الصوت الذي يصدر منه في الأكل وطريقة أخذه لقضمات من صحنيّ ماري وفيرنون، أخذتني ماري إلى دورة المياه، وأخبرتها هنا بكل شيء.

«لن أتزوج هذا الرجل، فلا يمكنني أن أمضي بقية حياتي معه».

أخبرتني ماري بأن أستمتع بهذه الأمسية، وأفكر في هذا الأمر غدًا، ثم أنزلنا تحسين عند فندقه، وقادت ماري بي السيارة إلى منزلي، أخبرت تحسين أنني سأقله بسيارتي في اليوم المقبل.

عند نحو الساعة ٧:٠٠ من صباح اليوم المقبل اتصلت بابني أنس. فقد كان هو ويوسف يعيشان في الأردن، وكانا يذهبان إلى الجامعة هناك.

«ماما! هل اتصل بك أخوالي وخالاتي؟».

«لا. ماذا حدث؟».

«توفيت جدتي، وهي (أمي)».

صعقت بسماع ذلك، كنت أعرف منذ مدة طويلة أن أمي مريضة، لكني لم أعرف أنها مريضة إلى تلك الدرجة، لا يمكن أن تموت الآن، فأنا لا أزال أحتاج إليها.

احتجت إلى أن أنفرد بنفسي، فلم تكن لدي طاقة لأتعامل مع تحسين بعد الآن. فاتصلت به، وأخبرته بأن يحجز تذكرة طائرة، ويعود إلى أريزونا.

«ارجع من حيث أتيت. أنا أحتاج إلى بعض الوقت».

أخبرته بأن أمي توفيت، وأنني سأذهب للعمل، ولذلك لن أتمكن من مرافقته إلى المطار. فقال لي:

«ألا تريدينني أن أبقى معك هنا الآن؟ أنت تشعرين بالحزن، وتحتاجين إلى شخص بقربك!».

«لا، أنا لا أحتاج إلى شخص بقربي، اتصل بسيارة أجرة، وعدْ إلى أريزونا، أريد أن أنفرد بنفسي».

ذهبت لأرى السيدة نيكولاس، وأخبرتها بما حدث، فقد كانت دائمًا تذكرني بأمي. وإذا أغلقت عينيّ يمكنني أن أتظاهر بضع دقائق قصيرة بأن أمي لا تزال على قيد الحياة، عانقتني السيدة نيكولاس، وبكينا مع بعض.

«أنت لست مضطرة إلى أن تبقي معي اليوم، اذهبي لتستريحي، وتعتني بنفسك».

فعدت إلى المنزل، وبعد أن غادر تحسين إلى المطار اتصلت بي ماري، وأخبرتها عن أمي، فأحضرت هي وفيرنون وردًا وبطاقات عزاء، بقي فيرنون بعض الوقت، وعندما غادر سألتني ماري: أين تحسين؟

«يجب أن يكون هنا ليدعمك».

«طلبت منه أن يغادر يا ماري».

أخبرتها بكل شيء عن تحسين، وأنه ليس الرجل الذي أريد أن أمضي بقية حياتي معه، وأنني اعتقدته رجلًا جيدًا، لكنه أظهر وجهه الحقيقي في بضعة أيام فقط.

تلاشى أملي في علاقة مع رجل لطيف بسرعة، ولن أرى أخي الصغير أو أمي ثانية، بقيت في منزلي في العتمة يومين مستلقية في السرير فاترة الهمة، فلقد رغبت كثيرًا في أن تفهمني أمي، وأن تشعر بالسعادة من أجلي، لكنها رحلت الآن، ولن تعرف أبدًا الصعوبات التي مررت بها لأجعلها فخورة بالحياة التي بنيتها لنفسي. الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله الآن هو محاولة أن أكون أمًّا جيدة نحو أطفالها، على الرغم من المسافة الكبيرة التي تفصلنا.

همسة: إلى كل من كانت له أم قريبًا أو بعيدًا عنها، فليحمد الله على هذه النعمة، وليتقرب بطاعة الله ببره بها، وليجعلها بابًا من أبواب الجنة.

(أمي نعمة بحياتي أخشى زوالها).